

- ص233 وما بعدها.
- 55 - محمد أبو زهرة : مالك، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1952، ص153.
- 56 - نفس المرجع السابق، ص153.
- 57 - محمد عبدالستار أحمد نصار : المرجع المذكور سابقا، ص286.
- 58 - السيوطي : المرجع المذكور سابقا ص67.
- 59 - نفس المرجع السابق ص67.
- 60 - ابن رجب الحنبلي : فصل علم السلف على الخلف، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1347هـ، ص6.
- 61 - محمد عبدالستار أحمد نصار : المرجع المذكور سابقا، ص288-289.
- 62 - كولد زيهير (أخبنس) : "موقف أهل السنة القدماء بازاء علوم الأوائل" نقلا عن عبدالرحمن بدوي، المرجع المذكور سابقا، ص133.
- 63 - محمد عبدالستار : المرجع المذكور سابقا، ص287.
- 64 - محمد عبدالستار : المرجع المذكور سابقا، ص289.
- 65 - بدالمجيد التجار : المرجع المذكور سابقا، ص167-168.
- 66 - ابن الصلاح : فتاوي ابن الصلاح في التفسير والحديث والاصول والعقائد، طبعة القاهرة 1348، ص43.
- 67 - السيوطي : المرجع المذكور سابقا ص35.

حسن استغفر

د/طالب عبدالرحمن
معهد الحضارة الإسلامية وهران
الجزائر-

الزمن لا يخلو من حدث، والحدث إما سار وإما ضار، وهو يتعلق بالإنسان طورا، وبالكون طورا آخر، ولا مفر لسكان هذه المعمورة من تلك الأحداث طيلة وجودهم عليها، فولادتهم في حد ذاتها حدث بشري، لكنه باسم، وموتهم هو الآخر حدث بشري، لكنه مؤلم ومبك، وبين هذا وذاك ألوف المسرات تغمر الناس بخيرها وطيبها، وألوف المضرات تزعجهم وتفقدتهم شهية الحياة.

والشخص اللبيب؛ رجلا كان أو امرأة هو ذلك الذي يستفيد من الاثنين، ينعم بالنعيم، ويدخر منها ما يفيد أيام المحن والنقم، لا يئلو جهدا أن يجعل من كل الأيام مدارس للعضات والعبر، ولا يستسلم للشدائد، بل يقاوم بكل ما لديه من إيمان قوي، وفكر ثاقب، متكل على الله النافع الضار، ومعتمد على تجاربه وتجارب الأوائل.

وما يقدم هنا إنما هو مجرد نماذج من أحداث بشرية وكونية، حدثت أيام البعثة النبوية، فاستغلها الرسول -صلى الله عليه وسلم- استغلالا كاملا فاستفاد منها وأفاد بوحى من ربه، وعزيمة من كيانه، وبعلمه وصفاء روحه، وحسن سلوكه ونجاح قيادته، والسيرة النبوية ملأى بالأحداث التي عالجها الرسول -صلى الله عليه وسلم- من مثل هذه العينات المختارة التالية :

1 - خصومة وحل مرض

كثيرا ما يقع المصلح في مواقع حرجة، يصعب معها إرضاء الخصوم؛ لأن كل خصم يدلي بحجته، وترجيح إحدى الحجج على غيرها ليس بالأمر السهل، وليس هو في متناول الجميع، ولذا قد يفشل أحيانا المسؤولون عن المفاوضات المعقدة، بسبب تباين المواقف،

فلال الأحداث البشرية والكونية لفائدة التربية

والرسول -صلى الله عليه وسلم- عاش مواقف حرجة متعددة، ويتوفيق من الله خرج منتصرا، افترق الخصوم مستبشرين ومقتنعين بالحل النبوي المحكم الصائب. والحديث النبوي الآتي نموذج لحل بعض القضايا المشابهة لما يحدث اليوم.

عن البراء -رضي الله عنه- قال. (1) "لما اعتمر النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذي القعدة، فابى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا : ما قضى عليه محمد رسول الله، قالوا : لا نقر لك بهذا، لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئا، ولكن أنت محمد بن عبدالله فقال : أنا سول الله، وأنا محمد بن عبدالله، ثم قال لعلي : امحُ رسول الله. فقال علي : لا، والله لا أمحوك أبدا. فأخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب : هذا ما قاضى محمد بن عبدالله، لا يدخل مكة السلاح إلاّ السيف في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يُقيم بها. فلما دخلها ومضى الأجل أتوا عليا فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- فتبعته ابنة حمزة تنادي : يا عمّ يا عمّ، فتناولها علي فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام : دونك ابنة عمك حملها. فاختصم فيها علي وزيد وجعفر. قال علي : أنا أخذتها وهي بنت عمي، وقال جعفر : ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد : ابنة أخي فقضي بها النبي -صلى الله عليه وسلم- لخالتها وقال : الخالة بمنزلة الأم. وقال لعلي : أنت مني وأنا منك. وقال لجعفر : أشبهت خلقي وخلقي. وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا. وقال علي : ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال : إنها ابنة أخي من الرضاة".

الحدث في هذا الحديث، هو قضية عمارة ابنة السيد حمزة بن أبي طالب التي أرادت

الهجرة من مكة الى المدينة، وتعلقت برسول الله -صلى الله عليه وسلم- تناديه : يا عم ياعم، وقد اختصم فيها كبار الصحابة -رضوان الله عليهم- : علي بن أبي طالب، جعفر بن أبي طالب، زيد بن حارثة. كل يريد أن يحظى بشرف كفالتها، وكل أدلى بحجة مقبولة، والقضاء بها لأحدهم صعب، وإرضائهم جميعا أصعب. ولكن الرسول -صلى الله عليه وسلم- الموحى اليه استغل هذا الحدث لفائدة التشريع الاسلامي والتعليم، وقضى بها لجعفر بن أبي طالب لسببين اثنين :

- 1 - إنه ابن عمها، وهذا السبب يشترك معه فيه الإمام علي.
 - 2 - زوجة السيد جعفر هي خالة لعمارة، والخالة بمنزلة الأم في الحنان، وفي الاهتداء الى ما يصلح البنات، وهذا السبب الثاني اختص به السيد جعفر دون سواه.
- وقد رضي الكل بهذا القضاء النبوي العدل؛ لأن الله تعالى يقول : "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً، ومع هذا الرضى، فالرسول -صلى الله عليه وسلم- أراد أن يكرم كل واحد من هؤلاء الثلاثة، بمنقبة عظمى تخلد أثره في الخالدين، وحينذاك :

1 - أعطى -صلى الله عليه وسلم- للإمام علي النسب والمصاهرة فقال له : "أنت مني وأنا منك".

2 - وأعطى للإمام جعفر الشبه في الخلق الجسماني، والخلق الرباني، فقال له : (2) "أشبهت خلقي وخلقي".

3 - وأعطى -مولاه زيد بن حارثة الأخوة في الإيمان، والعقاقة من رق العبودية فقال له : "أنت أخونا ومولانا".

2 - وضع الحجر الأسود في مكانه

من جملة استغلال الأحداث البشرية والكونية لفائدة التربية وَضَعُ الرسول -صلى الله عليه وسلم- الحجر الأسود في مكانه، بمعية جمع من سادات قریش وكبرائهم، عندما اختلفوا في وضعه، وكادوا يقتتلون عليه، وحديث السائب بن عبدالله الذي كان من جملة من أعادوا بناء الكعبة، يُخبر عن الحادثة بنفسه فيقول : (3) "...فَبَنَيْنَا حَتَّى بَلَّغْنَا الْحَجْرَ وَمَا يَرَى الْحَجْرَ أَحَدٌ، فَإِذَا هُوَ وَسْطَ حِجَارَتِنَا مِثْلَ رَأْسِ الرَّجُلِ يَكَادُ يَتَرَاوَى مِنْهُ وَجْهُ

الرجل، فقال بطن من قريش : نحن نضعه، وقال آخرون نحن نضعه، فقالوا : اجعلوا بينكم حكما، قالوا أول رجل يطلع من الفج، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا أتاكم الأمين فقالوا له : فوضعه في ثوب ثم دعا بطونهم فأخذوا بنواحيه معه، فوضعه هو صلى الله عليه وسلم".

هذه الحادثة: حادثة هدم الكعبة وإعادة بنائها، وقعت -حسب ما قاله البنا- نقلا عن الحافظ ابن كثير(4) -والرسول- صلى الله عليه وسلم- عامها ابن خمس وثلاثين سنة، ولم يكن بعث بعد مع ذلك، فإنه استطاع بفطنته وذكائه، وجميل سلوكه مع عشيرته وذويه، وتوفيق الله إياه، أن يحسم الخلاف بين القبائل التي تنازعت على وضع هذا الحجر الأسود، لولا التحكيم المحكم لجرى بطن وادي مكة بدماء العرب، كما كانت عادتهم في إشعال نار الحرب لأتفه الأسباب، فكيف وهم في هذه القضية يتنافسون على أنفس شيئ وأقدس، وهو الحجر الأسود المأمور بتقبيله في الطواف عبادة الله تعالى.

ومن توفيق الله لرسوله -صلى الله عليه وسلم- أن جعل الحجر في ثوب، وأمر سادة القبائل أن يحملوا هذا الحجر من أطراف الثوب الذي وضع فيه، ويرفعوه إليه؛ ليضعه بيده الشريفة في مكانه الذي وضع فيه منذ العهد القديم.

إذن الرضى من القبائل لم يكن -فقط- من أجل أن الحكم هو الأمين، بل أيضا من كون كل القبائل التي تخاضعت على الحجر، شاركت في حمله بمشاركة ممثليها؛ لأنه لو أمر قبيلة ما لتحمل هذا الحجر بمفردها اتهم بالمحاباة أو بأمور أخرى، ولكن لما وضع أطراف الثوب في أيدي ساداتهم، رضىوا بالتحكيم عن قناعة، ولم تستطع أن تفتخر قبيلة عن الأخرى، ذلك أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- موفقون للعمل الصالح، منذ ولادتهم حتى وفياتهم، ومُلهمون إلى القول الطيب، والحكم السديد.

وعرض مثل هذه النماذج الفعلية والقولية المختارة، الصادرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فلا اعتبار بها، وتطبيقها عند ما تدعو الحاجة إليها؛ لأن لها أثرا فعالا في حسن تطبيق الأحكام بين الناس عن اقتناع ورضى، ومنها يمكن أن يتخذ الناس طريقا لهم في الحياة الاجتماعية، تفيدهم دائما في كافة شؤون الحياة.

3 - غزوة الفتح

غزوة فتح مكة المكرمة وقعت في السنة الثامنة من الهجرة النبوية،(5) وحيث أن

المهاجرين الذين طُردوا من مكة ظلما وعدوانا من قبل الكفار، هم أنفسهم وأنصارهم الذين جاؤا يفتحون مكة، بكثرة عدَّة، وقوة عدَّة، وهنا يمكن أن يتصور المرء كيف يكون الانتقام من هؤلاء الأقوام الذين ضيقوا عليهم الخناق أيام البعثة النبوية، وقاطعوهم فلم يتعاملوا معهم وعذبوهم بدون سبب، "وما نَقَمُوا منهم إِلَّا أنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ" (6). إذن في هذه الغزوة وقعت حوادث كبرى. لولا أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- عالجها بسلوكه الناجع، قبل فوات الأوان لحصلت الكارثة، ولعصفت رياح الحرب بما بُني من قبل المسلمين في مدة عمر الاسلام آنذاك. ولتوضيح هذه الأحداث لابد من عرض الحديث الصحيح لكامل هذه الغزوة رغم طوله، ولكن يشفع لهذا الطول الفوائد الجمة التي يمكن استنتاجها، والتي ستعقب الحديث مباشرة.

روى الإمام مسلم بسنده عن عبدالله بن رباح قال (7) : "وفدنا الى معاوية بن أبي سفيان، وفيها أبو هريرة، فكان كل رجل منا يصنع طعاما يوما لأصحابه، فكانت نوبتي، فقلت يا أبا هريرة، لو حدثتنا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى يدرك طعامنا، فقال : كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الفتح فجعل خالد بن الوليد على الْمُجَنَّبَةِ اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيدة على البياذقة وبطن الوادي، فقال : يا أبا هريرة، ادع لي الأنصار فدعوتهم، فجاءوا يهرولون، فقال : يا معشر الأنصار، هل ترون أوباش قريش؟ قالوا : نعم. قال : انظروا إذا لقيتكم غدا أن تحصدوهم حصدا وأخفى بيده، ووضع يمينه على شماله، وقال : موعدكم الصفا. قال : فما أشرف يومئذ لهم أحد إلا أناموه، قال : وصعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الصفا، وجاءت الأنصار، فطافوا بالصفا، فجاء أبو سفيان فقال : يا رسول الله أبيت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم. قال أبو سفيان قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن. فقالت الأنصار : أمأ الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته، ورغبة في قريته، ونزل الوحي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : قلتم أما الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته، ورغبة في قريته، ألا فما اسمي إذا؟ (ثلاث مرات) أنا محمد عبدالله ورسوله، هاجرت الى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم، قالوا : والله ما قلنا إلا ضناً بالله وبرسوله، قال : فان الله ورسوله يصدقانكم ويَعْذِرانكم".

لم يكن الرسول -صلى الله عليه وسلم- في نيته أيام الغزوات إبادة المشركين والكفار، ولم يشرع الجهاد من أجل القتل. بل لدفع الظلم والعدوان، وإلا فقد صبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- وصحبه مدة ثلاثة عشر سنة في مكة على تعنت الكفار ولم يقاتلهم، حتى هاجروا وأذن الله لهم في القتال، قال الله تعالى: (8) "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير" ولم يؤمر المسلمون بالجهاد من أجل إكراه الناس على الدخول في الإسلام. قال الله تعالى: "لا إكراه في الدين" (9).

إذا سن الجهاد لاعلاء كلمة الله العليا، ولدفع الظلم حتى يعبد المسلمون ربهم في اطمئنان وسلام. وفي غزوة قريش كان هناك من يريد إبادة قريش عن آخرها، كما قيل: "اليوم يوم الملحمة" (10) وكما قال أبو سفيان: "أبيدت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم" (11).

وحين وصل الأمر الى هذا الحد من الخطر؛ الخطر من الإبادة الجماعية لقريش، والخطر من قلق الأنصار حيث أنهم ظنوا: أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيفارقهم، قام الرسول -صلى الله عليه وسلم- حينذاك بتكتيكات عسكرية، حفاظا على الأنفس البشرية، وقد عالج القضية الأولى بفرض حضر التجول، والعفو عن المعتدين حيث قال: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن غلق بابه فهو آمن". وعالج القضية الثانية بقوله للأنصار: "فالمحيا محياكم، والممات مماتكم". وهكذا انتهت المعركة بنجاح، أرضى الرسول -صلى الله عليه وسلم- الانصار باختياره الحياة معهم في المدينة المنورة، وأدخل الطمأنينة على أهل مكة بالسماح لهم، والعفو عما اقترفوه من جرائم نحوه ونحو صحبه. وكانت النتيجة بسبب هذا السلوك النبوي التربوي، أمام هذه المواقف الصعبة طيبة للغاية، وقد دخل عدد كبير من الكفار الى الاسلام على إثر انتهاء المعركة، وأمسا من أنصاره المدافعين عنه، والمبشرين به في أصقاع المعمورة، وقد أسلم من أهل مكة في مدة قصيرة حوالي ألفي شخص.

وقد روي الحافظ السيوطي بسنده عن الربيع: "أن رجلا قال يوم حنين: لن تغلب من قلة، فشق ذلك على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأنزل الله عز وجل (12) "ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم" قال الربيع: وكانوا اثني عشر ألفا، منهم ألفان من أهل مكة. "الذين أسلموا أيام الغزوة، فهم مسلمون جدد؛ خرجوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم

الى هوازن.

4 - هلا مع صاحب الحق كنتم

سلوك الرسول التربوي تعددت مجالاته، وتنوعت مواقفه، في الجهاد وفي السلم، في السفر وفي الحضر، ذلك أن معاملة الناس في حياتهم شئ ضروري، لا يمكن لأي إنسان أن يستغني عنها، وهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو نفسه كان يتعامل مع الناس، كزائر أو مزار، وكبائع أو مشتر، وقد يفقد أحياناً المال فيشتري بالدين لأجل مسمى، وربما يحل الأجل ولم يستطع تسديد الدين لفقدان المال، ترى كيف يكون موقف الدائن والمدين؟ والحديث الموالي يجيب عن هذه القضية.

عن أبي سعيد الخدري قال : جاء أعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم يتقاضاه ديناً كان عليه، فاشتد عليه حتى قال له : أخرج عليك إلا ما قضيتني، فانتهره أصحابه وقالوا : ويحك تدري من تكلم؟ قال : إني أطلب حقي، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : (13) "هلا مع صاحب الحق كنتم؟" ثم أرسل الى خولة بنت قيس فقال لها : "إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمرنا فنقضيك" فقالت : نعم. بأبي أنت يا رسول الله. قال : فأقرضته، ففضى الأعرابي وأطعمه، فقال : أوفيت، أوفى الله لك. فقال : "أولئك خيار الناس، إنه لأقدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير مُتَّع".

الحديث في هذا الحديث هو سوء معاملة الدائن للمدين، شدته في طلب الدين، وتضييقه الخناق على الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالقول والفعل، الشئ الذي لم يرده الصحابة - رضوان الله عليهم - في مثل هذه المواقف، وهم الذين لا يرفعون أصواتهم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تطبيقاً للتعاليم القرآنية التي يقول الله تعالى فيها "يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون" (14).

هذه المعاملة السيئة في التقاضي هي التي جعلت الصحابة ينتهرون الأعرابي وينكرون عليه، ولكن الأعرابي لم يتراجع عن موقفه، بل زاد في طلبه واحتجابه، وكان يرى أن هذا من حقه، لكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكن في ذلك الوقت يملك ما يسد به دينه، والشرعية الإسلامية في حالة الإعسار وفقدان ما يسد به الدين لا تكلف المدين بما لا طاقة له به، بل تطالب الدائن أن يصبر؛ لأن المدين معسر قال الله تعالى : "وإن كان ذو

عُسْرَةٌ فَتَنْظِرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ". (15) إِذَا الْمَوَاقِفُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ ثَلَاثَةٌ، وَكُلُّهَا حَرْجَةٌ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَحْدُثَ انْزِلَاقًا لَا يَحْمَدُ عَقْبَاهُ وَهِيَ :

1 - مَوْقِفُ الْأَعْرَابِيِّ وَسُوءُ التَّقَاضِي.

2 - مَوْقِفُ الصَّحَابَةِ مِنْ سُوءِ مَعَامَلَةِ الْأَعْرَابِيِّ.

3 - مَوْقِفُ الرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مَا يَسُدُّ بِهِ الدِّينَ، فَمَا الْحُلُّ؟
الْحُلُّ يَأْتِي مِنْ سُلُوكِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّربَوِيِّ، إِنَّهُ اسْتَقْرَضَ مَرَّةً أُخْرَى تَمَرًا مِنَ السَّيِّدَةِ خَوْلَةَ بِنْتِ قَيْسٍ زَوْجَةَ عَمِّهِ السَّيِّدِ حَمْزَةَ، وَسَدَّدَ بِهِ مَا عَلَيْهِ مِنْ دِينٍ تَجَاهَ الْأَعْرَابِيِّ، وَوَفَّى لَهُ الْكَيْلَ وَأَطْعَمَهُ، حَتَّى رَضِيَ وَدَعَا لِلرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِالْخَيْرِ. رَجَعَ الرَّسُولُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِاللَّائِمَةِ عَلَى صَحَابَتِهِ الْغَيُورِينَ، وَاسْتَنْكَرَ مَوْقِفَهُمُ الَّذِي اتَّخَذُوهُ تَجَاهَ الْأَعْرَابِيِّ صَاحِبِ الْحَقِّ، وَدَعَا عَلَى الْأُمَّةِ الَّتِي لَا تَحْتَرِمُ حَقُوقَ الضَّعَفَاءِ فَقَالَ : "لَا قُدُسَ لَأُمَّةٍ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفَ فِيهَا حَقُّهُ غَيْرَ مُتَعَتِّعٍ".

5 - الْجَائِعُ يَأْكُلُ مِنَ الْغَوَاكِهِ السَّاقِطَةِ

الْإِنْسَانُ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَكْلِ وَشَرَابٍ بِطَبِيعَةِ خَلْقَتِهِ، وَهُوَ مُطَالِبٌ بِالْعَمَلِ لِسُدِّ حَاجَاتِهِ وَحَاجَةِ أَسْرَتِهِ، وَلَكِنْ قَدْ يَعْضُرُ عَارِضٌ فَيَعْجِزُ عَنِ الْعَمَلِ، لِمَرَضٍ أَوْ جَفَافٍ أَوْ سَفَرٍ. وَقَدْ يَمُرُّ الْجَائِعُ بِحَقْلٍ أَوْ بَسْتَانٍ، فَيَسْأَلُ رَبَّ الْحَقْلِ أَوْ صَاحِبَ الْبَسْتَانِ مَا يَسُدُّ بِهِ رَمَقَهُ، وَلَكِنَّهُ أحيانًا لَا يَجِدُهُ هُنَاكَ، فَمَا الْعَمَلُ؟ وَهَذَا هُوَ مَوْضُوعُ الْحَدِيثِ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا وَسَنَرَى فِيهِ سُلُوكَ الرَّسُولِ التَّربَوِيِّ الْمُخْتَارِ.

عَنْ عَبَّادِ بْنِ شُرْحَبِيلٍ قَالَ (16) : "أَصَابَنَا عَامٌ مَخْمَصَةٌ، فَأَتَيْتِ الْمَدِينَةَ، فَأَتَيْتِ حَائِطًا مِنْ حَيْطَانِهَا، فَأَخَذْتُ سُنْبُلًا فَفَرَكْتُهُ وَأَكَلْتُهُ وَجَعَلْتُهُ فِي كِسَائِي، فَجَاءَ صَاحِبُ الْحَائِطِ، فَضَرَبَنِي وَأَخَذَ ثَوْبِي، فَأَتَيْتِ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ لِلرَّجُلِ : "مَا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ جَائِعًا أَوْ سَاغِبًا، وَلَا عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَرَدَّ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ، وَأَمَرَ لَهُ بِوَسْقٍ مِنْ طَعَامٍ أَوْ نَصْفِ وَسْقٍ".

لَمْ يَكُنْ مِنْ عَادَةِ الرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَوْمُ النَّاسِ عَلَى هَفَوَاتِهِمْ بِشَدَّةٍ، وَلَكِنْ بِأَدَبٍ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قَالَتْ (17) : "لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَاحِشًا وَلَا مُتَّفَحِّشًا وَلَا صَخَابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ". وَلِذَا لَمْ يَنْكَرْ عَلَى الْجَائِعِ الَّذِي فَرَكَ السَّنْبِلَ، فَأَكَلَ مِنْهُ وَادْخَرَ

قسطا في الكساء، لان صاحب البستان الذي لم يتسامح مع الجائع فيما أكل، حيث ضربه وأخذ منه ثوبه، وهو شخص مسافر، أصيب بمجاعة من جراء القحط، ولام عليه أيضا؛ لأنه لم يعلمه ما أحل الله في مثل هذه الحالة للجائعين، وهو جواز الأكل من حبوب وفواكه حسب الحاجة من دون ادخار.

استغلال الحدث هنا هو :

- 1 - تعليم الجائع الذي أكل من طعام الغير واكتنز.
 - 2 - الإنكار على صاحب البستان الذي لم يحسن معاملة عابر السبيل الجائع.
- والتربية هنا فقهية وأخلاقية. فالفقه أن يأكل الجائع من طعام الغير ولا يدخر. والأخلاق أن لا يُقهر المسكين ولا يطرد قال الله تعالى : "وأما السائل فلا تنهر"(18).

6 - إيثار قوم بالمال لا يعني تغضيلهم

الحصول على رضى الناس جميعهم في المعاملات من المستحيلات، والمربي الحكيم هو ذلك الشخص الذي يستطيع أن يخفف من حدة التوتر، وأن يضيق من فجوة فوهات البراكين الحارقة، سيما الخلافات والخصومات التي تحدث بين الفرقاء أثناء الحرب، فإنه قد تعصف بكل المخططات الاستراتيجية وتخسر المعركة والحرب معا، وهي الطامة الكبرى عند الساسة والعسكريين الذين مارسوا الحروب المدمرة. والحديث الموالي الخاص بإعطاء قريش من فئى هوازن ومنع الأنصار، فيه شئ من هذا المعنى، ولولا الحكمة الحسنی لدى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسلوكه التربوي المتميز في معالجة القضايا العظمى، وحسن استغلال أحداثها الخطيرة لجرت ويلات وويلات في الغزوات الاسلامية. روى الإمام البخاري بسنده عن الصحابي أنس بن مالك -رضي الله عنه-(19) "أن ناسا من الأنصار قالوا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أموال هوازن ما أفاء، فطلق يعطي رجالا من قريش المائة من الإبل، فقالوا : يغفر الله لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعطي قريشا ويدعنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم. قال أنس : فحدث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمقالتهم، فأرسل الى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم، ولم يدع معهم أحدا غيرهم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال : ما كان حديث بلغني عنكم؟ قال له فقهاؤهم : أما ذؤأرأنا يارسول الله فلم يقولوا شيئا، وأما أناس منا حديثا أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعطي قريشا ويترك

الأنصار، وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : إني لأعطي رجلاً حديث عهدهم بكفر، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رجالكم برسول الله -صلى الله عليه وسلم؟ فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به. قالوا : بلى يا رسول الله، قد رضينا. فقال لهم : إنكم سترون بعدي أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض، قال أنس : فلم نصبر.

إذاً هذا موقف آخر حرج جداً، والحدث في هذا الحديث هو انزعاج فتية من الأنصار بسبب حرمانهم من الفيء وتوزيعه على قريش، ولولا تدارك الموقف من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم- للحدث، وحسن سلوكه لوقع انشقاق في الصفوف، أما كيفية استغلال هذه القضية لفائدة التربية، فإنه يتضح من خطبته -صلى الله عليه وسلم- التي أوضح فيها، أن قسمة الفيء كانت عادلة جداً : المال أعطاه للمؤلفة قلوبهم يتألفهم به، والأنصار أثروا بنفسه في حلهم وترحالهم، وبالفعل، لما انتهت المعركة لصالح المسلمين، رجع القرشيون إلى مكة بإبل وغنم، ورجع الأنصار برسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

فالتربية هنا عملية وقولية؛ لأن إثارة قوم بالغنائم لا يعني تفضيلهم على غيرهم، وحرمان طائفة من المال لا يعني إهمالهم، إنما وكلهم إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر " (20) إني أعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحب إلى من الذي أعطي، أعطي أقواماً لما في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، ومنهم عمرو بن تغلب. فقال عمرو ما أحب أن لي بكلمة رسول الله -صلى الله عليه وسلم حُمر النعم."

7 - الخصومة

كثيراً ما تقع الخصومات لأتفه الأسباب، وقد تؤدي إلى منازعات وحروب وتمزق، وأسباب هذه الخصومات متعددة، قد تنشأ بسبب الأموال، وقد قال صلى الله عليه وسلم : "إن لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال". (21) وقد تقع بسبب النساء. وقد قال الرسول -صلى الله عليه وسلم- : "ما تركت في الناس بعدي فتنة أضرب على الرجل من النساء". (22) كما أن مرد الخصومات أحياناً أخرى، يكون بسبب اختلاف في العقيدة، والخصام الذي ضمنه الحديث الموالي كان من أجل العقيدة في أفضلية الرسل.

عن الصحابي أبي هريرة -رضي الله عنه- قال (23) : "استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم : والذي اصطفى محمداً على العالمين في قسَم يقسم به، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك، فلطم اليهودي، فذهب اليهودي الى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبره بالذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- "لاتخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله"

اصطفاه الله للرسول سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- على العالمين، نصت عليه الأحاديث النبوية الصحيحة، ومنها مارواه الإمامان : مسلم وأبو داود بسنديهما عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : (24) "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأنا أول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع".

قال الإمام المناوي : (25) "وصف نفسه بالسؤدد المطلق، المفيد للعموم في المقام الخطابي؛ على ما تقرر في علم المعاني، فيفيد تفوقه على جميع ولد آدم حتى أولو العزم من الرسل". ولكن لا ينبغي للمسلم -وهو يذكر مناقب الأنبياء والمرسلين أن يحط من قيمة أحدهم لأن الرسل كلهم كمل، والعوام غالباً عندما يريدون تفضيل رسولنا سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- يحاولون أن يلصقوا بعض النقائص بالرسول الآخرين لتظهر مزايا الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا مضر بالعقيدة، ومُخل بالأدب التربوي.

لذا لما وقعت الخصومة بين الصحابي واليهودي، في هذا الحديث، عالج الرسول -صلى الله عليه وسلم- هذه القضية بحكمة وسلوك تربوي وقال : (26) "لاتخيروني على موسى". وقال أيضاً : (27) "لايقولن أحدكم إني خير من يونس" زاد مسدد : "يونس بن متى". أي لا يقول المسلم رسولنا سيدنا محمد خير من الرسول يونس بن متى. وقال مرة أخرى : (28) "لا تفضلوا بين أنبياء الله".

إذاً هذا موقف من المواقف التي فرضت نفسها على الساحة الأدبية، وبسلوك تربوي من طرف الرسول -صلى الله عليه وسلم- حل النزاع القائم بين الصحابي واليهودي، وأعطى فيه تعليمات ترضي جميع الأطراف، حتى أطراف أهل الكتاب، ليسود السلم،

وتخمد الفتنة.

وذكر هذه القضية في هذه الرسالة ليس من باب التسلية، بل هي من باب الإعجاب في كيفية معالجة القضايا الكبرى بسلوك مرض، ثم هي من أجل التطبيق؛ لأن اليوم كثيرا ما يقع خصام بين الناس في تفضيل عالم على عالم، لسبب أو لآخر، ويبالغ أحيانا في تمجيد عالم على حساب عالم آخر، بل ويستنقص أو يهان هذا العالم الثاني، وينتقل ذلك التمجيد المبالغ فيه، وتنقل تلك الإهانة المزرية من أعالي القوم إلى الدهماء الذين لا علم لهم ولا دراية، وتتحزب الأحزاب، وتتكتل الكتل، فتتفرق الأمة وتهلك، بسبب انفصام عرى المسلمين. والله تعالى يقول في القرآن: (29) "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا".

8 - كسوف الشمس

خلق الله العالم، وخلق السموات والأرض وما بينهما من كواكب ونجوم، وخلق الشمس والقمر، وسيّر الكل على سنن سليمة؛ لتستفيد منها المخلوقات، حرارة وبرودة، ضياء وظلمة، وغير ذلك من الفوائد الكثيرة، وحفظ الكل بقدرته، (30) "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون" ومن سنن الكون، حدوث المرة بعد المرة كسوف، وسبب الكسوف كما يراه علماء الفلك والجغرافيون، هو توسط القمر في سيره بين الشمس والأرض، (31) وهو حدث ملفت، بل ومفزع ومخيف، ولو أبقي الله ذلك الحدث على ما هو عليه، لانعدم النهار، وانعدمت معه المنافع التي تكتسب بحرارة الشمس، وقد استفهم الله -جل شأنه- عباده عن مثل هذه الحادثة فقال: (32) "قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون؟" وقد حدث كسوف في العهد النبوي، روى المغيرة بن شعبه قال (33): "كسفت الشمس في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم. فقال رسو الله -صلى الله عليه وسلم-: إن الشمس والقمر آيتان لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا، وادعوا الله". وفي رواية ثانية: (34) "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله..". وفي الرواية الثالثة: (35) "إن الله يخوف بهما عباده".

إذاً الكسوف حدث كوني خطير، ولما صادف حدوثه موت السيد إبراهيم ابن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال الناس كسفت الشمس لموت إبراهيم، وحيث قالوا ذلك من غير

أثارة من علم، صحَّح لهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- عقيدتهم وقال: (36) "إنَّ الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد أحياته..." الحديث.

كان حدث هذا الكسوف فرصة حميدة لتصحيح العقيدة، ولواجهة الخطب بصلاة، ودعاء، وفرصة ثمينة لإعلام الناس بأن الشمس والقمر علامتان ومن جملة ما يخوف الله بهما عباده، ليقروا بالآلوهية لله، ووحدانيته وقدرته.

الخلاصة

بعث الله رسوله سيدنا محمد ابن عبدالله -صلى الله عليه وسلم- منقذا للبشرية، وقد وجدها تعيش الجهالة على مستويات مختلفة، الجهالة في العقيدة، والانحراف في السلوك، والحكم بغير ما أنزل الله، والتحاكم الى الطاغوت، والتفاخر بالعادات الجاهلية؛ عادات الآباء ولو كانت منحرفة، وبعيدة عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وليس من السهل أن يصحح كل هذه الانحرافات في يوم أو يومين، وليس من البيداغوجيا أن يقنن كل القوانين الضرورية الواحدة تلو الأخرى في جلسة أو جلستين، إنما العلاج والتربية المثلى هي التي تعالج تلك القضايا المستجدة في حينها، وإظهار الاضرار الناجمة عن بعض التصرفات الشائنة في وقتها، وهذا ما كان يقوم به الرسول -صلى الله عليه وسلم- طيلة مقامه بمكة المكرمة، وبالمدينة المنورة، مدة ثلاث وعشرين سنة. لقد أدخل البسمة على الصحابة الثلاثة : الإمام علي، والسيد جعفر بن أبي طالب، ومولاه زيد بن ثابت، عندما رفعت القضية الشائكة إليه؛ قضية بنت السيد حمزة التي أراد كل منهم أن يكفلها ليحكم فيها، وقد ارتضوا حكمه عن اقتناع لما غمرهم بأوصاف جليلة، وقربهم إليه جميعا قربا يغبطون عليه.

وقبول التحكيم في قضية وضع الحجر الأسود من التربية بمكان؛ لأنه أشرك القبائل المتنازعة في حمل الحجر، وهي قضية عظمت كادت تعصف بأهل مكة. وأحداث غزوة الفتح وقعت في مكة، ووقعت أحداث كبرى ولكنها عولجت بسلوك تربوي ارتضاه الجميع، ومشكلة الأعرابي الدائن فكَّتْ عُقْدَتُها بتسديد الدين وإطعام ودعاء. لاقدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع". وقضية الجائع الذي أكل من طعام الغير حَلَّتْ بأحكام، بفقهِ وتربية. وَحَدَّثُ الكسوف أَحَقَّ فيه الحق، وأبطل أقاويل الناس الزائفة. إذاً استغلال الفرص، ومعالجة قضايا الناس في الأوقات المناسبة، هو سلوك الرسول التربوي في حله وترحاله،

واستغلال الفرص المناسبة أفيد بكثير من دروس وخطب طويلة، تلقي على المنابر في أوقات غير مناسبة، والماء أحلى ما يكون عند العطش، أما عند الريّ فليس بمطلوب، والطبيب يَبْحَثُ عنه المرضى بجد وقت المرض، ويتناسونه وقت الصحة، وهكذا معالجة القضايا. فالسلوك النبوي في هذه الكلمة وأمثالها عبارة عن نماذج مختارة من مواقف حرجة عاشها الرسول صلى الله عليه وسلم فاستفاد منها وأفاد، ونحن إذ نسجلها هنا فللاقتداء بها في كيفية حل المشاكل المفروضة علينا بسلوك عادل يقنع المنازعين ويرضيهم، وهذا السلوك النبوي يعلمنا أيضا أن نعطي لكل مقام مقالا.

والملاحظ في استغلال الأحداث أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهو يستغل الظروف، والأحداث البشرية، والكونية؛ لفائدة التربية، لم تفته الفرصة أن يوجه الناس الوجهة الصحيحة، فيظهر الرضى عن بعض عاداتهم : أفعالا كانت أو أقوالا؛ إذا جاءت على الفطرة السليمة، ويهذب من العادات التي تحتاج الى تهذيب، وينكر بحزم على المعتقدات الضالة، ويرشد أهلها الى الصواب،

الهوامش

- 1 - الإمام البخاري، الصحيح، كتاب المغازي الباب 43 ص 7، ج 7، ص 499.
- 2 - المرجع السابق ج 7، ص 499.
- 3 - الإمام أحمد عبدالرحمن النبا، بلوغ الأمان الجزء 20 صفحة 198 وقال أخرجه الحاكم وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي.
- 4 - المرجع السابق، الجزء 20 صفحة 198.
- 5 - المرجع السابق، الجزء 20 صفحة 198.
- 6 - سورة البروج، الآية 8.
- 7 - الإمام مسلم، الصحيح : كتاب الجهاد والسير، الحديث 86.
- 8 - سورة الحج، الآية 39.
- 9 - سورة البقرة، الآية 256.
- 10 - الإمام البخاري، الصحيح، كتاب المغازي الباب 46.
- 11 - الإمام مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد، الباب 84، 86.
- 12 - الحافظ السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمتنور، بيروت، الطبعة الأولى 1403 هـ الجزء الرابع صفحة 158.
- 13 - ابن ماجه، السنن، (بدون تاريخ) مرجع سابق ج 2، ص 810.

- 14 - سورة الحجرات، الآية 3.
- 15 - سورة البقرة، الآية 280.
- 16 - ابن ماجه، السنن، كتاب التجارات، الباب 67.
- 17 - ابن حنبل، المسند مع البلوغ ج 22، ص 26.
- 18 - سورة الضحى، الآية : 10.
- 19 - الإمام البخاري، الصحيح، كتاب الخمس، الباب 19.
- 20 - الإمام البخاري، الصحيح، كتاب التوحيد، الباب 49 وكذا ابن حنبل، المسند، الجزء الخامس صفحة 69.
- 21 - الإمام أحمد البنا، بلوغ الأمان، الجزء 19 صفحة 303 وقد اتفق على تخريجه البخاري وسلم وغيرهما.
- 22 - نفس المرجع السابق صفحة 307 وقد خرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي.
- 23 - الإمام البخاري، الصحيح كتاب الدقاق، الباب 43 وكذا الإمام مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، الحديث، 160.
- 24 - الحافظ السيوطي، الجامع الصغير، رقم الحديث 2692، وقال رواه البخاري ومسلم وأبو داود.
- 25 - الحافظ المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، مطبعة مصطفى بن محمد 1356 هـ الجزء الثالث صفحة 41.
- * هكذا وردت لفظة "أولو" بالواو في فيض القدير.
- 26 - البخاري، الصحيح الجزء 5 ص 70.
- 27 - البخاري الصحيح، الجزء 6، ص 450.
- 28 - البخاري الصحيح الجزء 6، 451.
- 29 - سورج آل عمران، الآية 103.
- 30 - سورة يس الآية 40.
- 31 - أحمد عبدالرحمن البنا، البلوغ الجزء 6، صفحة 174.
- 32 - سورة القصص، الآية 71.
- 33 - الإمام البخاري، الصحيح، كتاب الكسوف، الباب الأول.
- 34 - نفس المرجع السابق، الباب السادس.
- 35 - نفس المرجع السابق.
- 36 - الإمام البخاري، الصحيح، كتاب الكسوف، الباب الأول.